مغيث الخلق في ترجيح القول الحق

لأبي المعالي عبد الملك الجويني

الشهير بإمام الحرمين

(419 - 487 هـ)

و بهامشه كتاب

إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق

للعلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري

(1296- 1371هـ)

اعتنى به

هيثم طعيمي

المكتبة العصرية

صيدا-بيروت

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

1424هـ 2003م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة و النشر و التوزيع

المكتبة العصرية للطباعة و النشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت -ص.ب 8355 11 –تلفاكس 009611 655015

صيدا -ص.ب 221 - تلفاكس 009617 720317

e-mail: alassrya@terra.net.lb

ISBN 9953- 34- 187-7

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله العليم الحكيم، الرؤوف الرحيم، الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق، و بعثه بكتاب عربي مبين، "لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه" لسعادة جميع الخلق، فكان برهان صدق في الدين، و حجة واضحة باقية أبد الدهر على العالمين، و أوجب على الأمم الاعتصام بحبله، و الوفاء بعهده، و القيام بحقه، و أمر رسوله صلى الله عليه و سلم ببيانه، و أمر الخلق باتباعه، فبلغ الرسالة، و أدى الأمانة، و بيَن و فسر، و بشر و أنذر، و ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، و قام أصحابه من بعده مقام صدق و أمانة في إقامة الدين و تبليغ رسالته الزكية كتاباً و سنة، و سلك مسلكهم في ذلك من تبعهم بإحسان، و من تلاهم من أعلام الإسلام و فقهاء الأمة المجتهدين، الذين هم أعلم بمعاني الحديث، فلم يدعوا باباً من أبواب الفقه في الدين إلا ولجوه و بينوا حكم الله فيه، و أتوا فيه بالعجب العجاب و البيان المستطاب.

و بعد:

يعتبر إمام الحرمين الجويني **(419 – 487 هـ)** موسوعة علمية، أخذ من جميع العلوم، و صنف في أكثر المعارف، و قد لاقت كتبه قبولاً حسناً في القديم، و شاعت في أرجاء الدولة الإسلامية. و في العصر الحاضر، بدأت كتبه تطبع و تنشر تدريجياً، و قد لاقت كتبه عناية خاصة من قبل العلماء و خصوصاً كتبه في أصول الفقه، و كتابه في السياسة الشرعية "غياث الأمم في التياث الظلم".

و إن من أوائل ما نشر له كتاب "مغيث الخلق في ترجيح القول الحق" الذي ينتمي إلى كتب علم الخلف، هدف من ورائه (كما يذكر في مقدمته له) وضع كتاب موجز في وجه تقديم مذهب الشافعي على المذاهب كلها، ليطلع عليه العام و الخاص، و يميل إليه خاصة الناس... و أنه يجب على عامة المسلمين و كافة المؤمنين مطالعته...(فـــ) نحن ندعي أنه يجب على كافة العاقلين و عامة المسلمين شرقاً و غرباً، بعداً و قرباً انتحال مذهب الشافعي... (و) لسنا نقول في آحاد المسائل فذاك من الفقه، و لأن إنما عقدنا هذا الكتاب لنخوض في الكليات).

و قد قام العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري (1297 – 1371 هـــ) بالرد عليه، حيث اتهمه بالتعصب للمذهب الشافعي، يقول الكوثري: فهذه رسالة سميتها: "إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الحق" أرد بها على كتيب يعزى إلى أبي المعالي الجويني، كان مثار فتن في منتصف القرن الخامس في خراسان و ما والاها... (و) أسلك فيما أكتب إن شاء الله منهجاً وسطاً بين التلطف و القسوة على قدر ما يستوجبه الكلام الذي أرد عليه من جهة بعده عن الحق و قربه منه ... و لسنا ننكر أن لإمام الحرمين فضلاً جسيماً في مؤلفاته في علم أصول الدين... و على جلالة قدره بين الشافعية و كثرة مؤلفاته في الفقه و أصوله، لا خبرة له بالحديث مطلقاً.

و لما كانت نسخ كتاب "مغيث الخلق" قليلة، فقد قمنا بإعادة طبعه اعتماداً على الطبعة الأولى التي طبعت في القاهرة بالمطبعة المصرية عام 1934. و إكمالاً للفائدة فقد قمنا بطباعة كتاب الكوثري "إحقاق الحق" معه بحيث جعلناه هامشاً له.

و قمنا بتقديم ترجمة لإمام الحرمين الجويني و للعلامة الكوثري في أول الكتاب.

و في الختام نرجو من الله تعالى أن يعيننا في خدمة هذا التراث الإسلامي و أن يتقبل منا عملنا إنه نعم المولى و نعم المصير.

ترجمة الإمام الجويني[1]

مؤلف كتاب: مغيث الخلق في ترجيح القول الحق

اسمه و نسبه

هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيُّويَة، الجويني، النيسابوري. و ينسب إمام الحرمين إلى جوين و نيسابور، و هما من بلاد فارس، في شمال إيران اليوم. و نسبة إمام الحرمين إلى جوين منحدرة له من والده الشيخ أبي محمد الجويني، الذي ولد فيها. و أما نسبته إلى نيسابور فبسبب ولادته فيها – بعد أن استقر بها والده– و نهل فيها العلم، و أقام فيها طوال حياته باستثناء أوقات رحلاته، ثم تولى فيها التدريس و الخطابة و الوعظ في المسجد و المدرسة النظامية إلى أن مات، و دفن فيها.

ولادته

اختلف علماء التاريخ و تراجم الرجال في وقت ولادته، فقيل ولد سنة **410** هـ و قيل سنة **417** هـ، و ذهب معظمهم إلى أنه ولد في الثامن عشر من المحرم سنة **419** هـ **(22** شباط **1028م)**.

كنيته و لقبه

كان إمام الحرمين الجويني يكنى بأبي المعالي، و هذه الكنية ليست بالنسبة لولده، و إنما هي للتعظيم و الوصف و المدح، باعتباره يقصد معالي الأمور و أشرفها.

---

[1] بتصرف عن كتاب: الإمام الجويني إمام الحرمين، للدكتور محمد الزحيلي، دار القلم، دمشق.

أما بالنسبة للقبه، فأطلق الناس و العلماء عليه لقبين: الأول ضياء الدين و الثاني – و هو الذي شاع و انتشر و صار الجويني معروفاً به– هو إمام الحرمين، و السبب في هذا اللقب الثاني أن الجويني خرج إلى مكة المكرمة فحج ثم ذهب إلى المدينة المنورة للزيارة، ثم جاور بمكة أربع سنين للعبادة و التدريس و الإفتاء و التصنيف و مجالسة العلماء، و أمَّ بالناس في الحرمين الشريفين، فسمي لذلك إمام الحرمين.

رحلاته و خروجه من نيسابور

في المرحلة الأولى من حياته اقتصر على تحصيل العلم عن والده و علماء نيسابور و المدن و القرى القريبة منها مثل سرخس و مروٍ و أصبهان و غيرها، حتى لمع نجمه، و استمر في تلقّي العلماء، و مناظرتهم و الاستفادة منهم، إلى أن وقعت فتنة في نيسابور أجبرت إمام الحرمين أن يترك موطنه، فخرج إلى بغداد، ثم توجه إلى الحجاز و أحرم بالحج و أدى فريضته، و زار المدينة المنورة، و جاور عند المسجد الحرام و المسجد النبوي الشريف، و أمَّ الناس، و أظهر علمه لهم و قام بالتدريس، و بقي هناك أربع سنوات، حتى لقب بإمام الحرمين، ثم عاد إلى بلده و وطنه سالماً غانماً.

أما عن سبب خروج إمام الحرمين من نيسابور فيرى أكثر المؤرخين أن السبب في خروجه يرجع إلى الفتنة التي وقعت بخراسان خاصة، و امتد أثرها إلى العراق و الشام و مصر، و خلاصتها ترجع إلى الأحوال السياسية و الدينية و المذهبية. و هي استيلاء الشيعة على معظم الأقطار الإسلامية، و استلامهم للسلطة و النفوذ، و شيوع آراء المعتزلة و الباطنية في ذلك الوقت.

و في عام **445** هـ كان زعيم السلاجقة السلطان طغرلْبَك، أبو طالب محمد بن ميكائيل، و كان من أهل السنة، و على المذهب الحنفي، و كان خيِّراً و كان يناصر أهل السنة، و كان وزيره أبا نصر منصور بن محمد الكندري، و كان معتزلياً رافضياً، خبيث العقيدة، و يؤمن بمبادئ القدرية و الكرامية و المجسمة و كان شديد التعصب لمذهبه و فرقته و شديد الكراهة على الشافعية خاصة، و في ذات الوقت كان الإمام أبو سهل بن الموفق، محمد بن هبة الله

البسطامي النيسابوري زعيم الشافعية بنيسابور، و كان صاحب مال و سلطة، و معروفاً بالجود و الكرم. و كان يتوقع له استلام الوزارة مكان الكندري، فخشي الكندري منه، فزين للسلطان طغرلبك لعن المبتدعة على المنابر، فأمر السلطان بذلك، و اتخذ الكندري هذا الأمر ذريعة للطعن بالأشعرية، و النيل من الشافعية، و التنكيل بأهل السنة، و الانتقام من ابن الموفق، فضمَّ إلى أمر السلطان بلعن المبتدعة لعن الأشاعرة، و تولى بنفسه الإشراف على ذلك، و إجبار الأئمة و الخطباء بنيسابور بإعلان ذلك في خطب الجمعة، و استعان بطائفة من المعتزلة الذين يتسترون بالمذهب الحنفي، و نقل المعتزلة بعض الآراء المحرَّفة عن أبي الحسن الأشعري إلى السلطان طغرلبك، و أنه يقول بها، و حجبوا السلطان عن مقابلة علماء نيسابور و شرح الحال له، فأعلن العلماء مجاهدة الباطل، فصدر الأمر من السلطان بالقبض على الرئيس الفراتي، و الأستاذ أبي القاسم القشيري، و إمام الحرمين الجويني، و أبي سهل بن الموفق، و نفيهم، و منعهم عن المحافل و أغروا بهم العامة و الأوباش، و تم القبض على القشيري و الفراتي و أودعوا السجن، و حبسوا، و كان ابن الموفق غائباً في بعض النواحي، فنجا، ثم دعا الناس إلى القتال و الجهاد لإطلاق سراح العلماء، و تم له ذلك، و أما إمام الحرمين فقد أحس بالأمر فاختفى، ثم خرج خفية عن طريق كرْمان إلى بغداد و الحجاز، و خرج العلماء من نيسابور، و منهم الحافظ أبو بكر البيهقي.و اشتد الأمر على ذلك في مختلف البلدان، و هجر العلماء أوطانهم و رفضوا الإذعان لهذا الاضطهاد و الإذلال، و فارقوا الأهل، و اتجهوا إلى بيت الله الحرام بالحج مستغيثين بالله، ملتجئين إليه متضرعين له، و يقال: لقد جمعت تلك السنة أربعمائة قاضٍ من قضاة المسلمين من الشافعية و الحنفية هجروا بلادهم بسبب هذه الواقعة، و رجع كثير منهم إلى أوطانهم، و تشتت فريق ثانٍ، و جاور بالحرمين فريق ثالث في العبادة و العلم.

و قد انتهت هذه الفتنة، و توقف اللعن و السب على المنابر، بعد خروج القشيري و الفراتي من الحبس، و كتب أبو القاسم القشيري رسالة باسم "شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة".

و وصل الأمر إلى السلطان طغرلبك، فاستدعى جماعة من علماء نيسابور و رؤساء الأشاعرة، منهم القشيري، و سألهم عما وصله و ما تم، فبينوا له الحق، و نطقوا بالصدق، و تراجع السلطان، و قال: إنا لعنّا المبتدعة و من يقول بالانحرافات المذكورة، و لم تمضِ فترة حتى مات السلطان طغرلبك، ثم قتل من بعده الوزير الكندري و تولى الحكم السلطان ألب أرسلان وزيره نظام الملك، و قاموا بالتصحيح الكامل، و كان إمام الحرمين قد رجع إلى أهله و وطنه، و استلم وظائفه و أعماله، و فتح له نظام الملك مدرسة نظامية بنيسابور، فتولى التدريس فيها مع الوعظ و الخطابة و الإمامة و المناظرة مدة ثلاثين سنة دون منازع حتى لقي ربه، و زالت نوبة التعصب و الفتن[1].

و تذكر بعض كتب التراجم و الرجال أن إمام الحرمين سافر إلى بغداد و الحجاز، و جاور بمكة، و تنقل في البلاد، و التقى بالعلماء، ثم عاد إلى نيسابور دون أن يرتبط ذلك بالفتنة و التعصب، و يضيف الذهبي و ابن العماد أن إمام الحرمين صحب الوزير الكندري مدة يطوف معه في البلدان، و يلتقي بحضرته بكبار العلماء، و يلقي الدروس في العسكر و بغداد، و هذه رواية غريبة لا تتفق مع شخصية الكندري الذي كان معتزلياً رافضياً متعصباً على أهل السنة، و يعلل ابن العماد أن الكندري قد تاب و حسنت توبته قبل قتله، و لعله صحب إمام الحرمين في هذه المرحلة.

إنتاج إمام الحرمين و آثاره

كان إمام الحرمين موسوعة علمية، أخذ من جميع العلوم ، و صنف في أكثر المعارف، و لكنه كان مبدعاً و محلقاً في التأليف و التدريس في ثلاثة علوم أساسية، و هي علم الكلام و أصول الدين، و علم الفقه.

[1] انظر: طبقات الشافعية الكبرى **3 / 389**، **4 / 208**، **5 / 170** و ما بعدها، تبيين كذب المفتري ص**108** و ما بعدها، **280**، البداية و النهاية **12 /64**، مفتاح السعادة **2 / 110** ، **330**

و لاقت كتب إمام الحرمين في القديم قبولاً حسناً على المستوى الرسمي عند السلطان ألب أرسلان و الوزير الشهير نظام الملك الذي قابله عليها بالشكر و التقدير و تقديم الخلع و المراكب الثمينة، كما نالت كتب إمام الحرمين شهرة فائقة على المستوى العلمي، فدونها التلاميذ، و نسخها الكتاب، و اهتم بها علماء عصره، و ذاعت في الآفاق، و تلقاها الفقهاء و علماء الأصول و علماء الكلام بالتقدير و التمحيص، و الدراسة و التقييم، و الشرح و الاختصار، و انتشرت كتب إمام الحرمين و آراؤه و أقواله على المستوى الشعبي في نيسابور و بغداد و الحجاز و البلاد التي رحل إليها أو مرَّ بها، ثم شاعت في أرجاء الدولة الإسلامية و بين جميع المسلمين، و تناقلوها جيلاً عن جيل، حتى وصل إلينا معظمها و الحمد لله.

ثم لاقت كتب إمام الحرمين عناية خاصة في العصر الحاضر، و أقبل عليها العلماء في مختلف الفنون، و بدأت هذه الكتب تطبع و تنشر تدريجياً، و اقتصر الأمر في النصف الأول من القرن العشرين على بعض كتبه، كالعقيدة النظامية، و مغيث الخلق، و في النصف الثاني من القرن العشرين بدأت تظهر بقية كتبه الثمينة و الكبيرة إلى النور.

ثبت بكتب إمام الحرمين

و يمكن تصنيف مؤلفاته و إنتاجه إلى ما يلي:

1- كتب العقيدة و أصول الدين و علم الكلام، و هي:

1- الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد.

2- الشامل في أصول الدين

3- لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة و الجماعة.

4- العقيدة النظامية.

5- مسائل الإمام عبد الحق الصقلي و أجوبتها.

6- كتاب أسماء الله الحسنى.

7- شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة و الإنجيل من التبديل.

8- رسالة في أصول الدين.

9- مختصر الإرشاد للباقلاني.

10- التلخيص في الأصول، و لعله هو الكتاب السابق بعنوان آخر.

11- الكرامات.

2- كتب أصول الفقه، و هي:

1- البرهان في أصول الفقه، و هو أهمها.

2- الإرشاد في أصول الفقه.

3- الورقات في أصول الفقه.

4- كتاب المجتهدين.

5- رسالة في التقليد و الاجتهاد.

6- التحفة .

3- كتب الفقه، و هي:

1- نهاية المطلب في دراية المذهب، و هو أهمها و أبرزها و أوسعها.

2- السلسة في معرفة القولين و الوجهين على مذهب الشافعي.

3- رسالة في الفقه.

4- مناظرة في الاجتهاد في القِبلة.

5- مناظرة في زواج البكر.

6- مختصر النهاية، أو تلخيص نهاية المطلب.

4- غياث الأمم في التياث الظلم. و هي في الفقه العام، و نظام الحكومة، و أصول الحكم، و السياسة الشرعية، و الأحكام السلطانية.

5- كتب في الخلاف، أو الفقه المقارن بين المذاهب، و هي:

1- الدرة المضيئة فيما وقع من خلاف بين الشافعية و الحنفية.

2- غنية المسترشدين في الخلاف.

3- مغيث الخلق في ترجيح القول الحق. (الذي بين أيدينا)

4- الأساليب في الخلافيات، و أشار له إمام الحرمين كثيراً في كتابه "البرهان"[1].

---

[1] انظر: البرهان **2 / 1417**، طبقات الشافعية، الإسنوي **1 / 412**.

6 – كتاب في أصول البحث و آداب المناظرة و الجدل، و هو "الكفاية في الجدل".

7 – كتب في العلوم الأخرى، و هي:

1- كتاب في النفس.

2- ديوان خطبه المنبرية

3- كتاب الأربعين في الحديث.

4- قصيدة، و هي وصية لولده.

5- تفسير القرآن الكريم.

و يلاحظ من هذا العرض تنوع الكتب و المصنفات التي خلفها إمام الحرمين، و هي تدل على سعة ثقافته، و تنوع مؤلفاته، و شمول كتبه للعلوم الإسلامية.

مرض إمام الحرمين و موته

استمر إمام الحرمين على نشاطه، و تولى مناصبه، و القيام بواجباته و أعبائه طوال ثلاثين سنة متواصلة إلى أن أدركه قضاء الله الذي لا بد منه، فمرض بمرض اليرقان، و هو مرض معروف، يظهر فيه الخلط الصفراوي على سطح البدن، و يطفو على الجلد، و بقي أياماً في هذا المرض، ثم برئ منه، و عاد إلى التدريس و مجلس التذكير و القيام بأعماله، و حصل السرور للخواص و العوام، و التلاميذ و العلماء، و لم يمضِ إلا زمن قصير حتى عاوده المرض، و غلبت عليه الحرارة، و ازداد ضعفه، و فترت همته، فحمل في محفّة إلى بُشْتَنِقان، و هي قرية من قرى نيسابور، تمتاز باعتدال الهواء، و خفة الماء، و كثرة الخيرات، و وفرة الغلات، فزاد الضعف، بدت عليه مخايل

الموت، و جاء الأجل الذي لا رادّ له، و سلّم الروح إلى بارئها هانئة مرضية (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي و ادخلي جنتي) [الفجر: 27 – 30]، و توفي إمام الحرمين رحمه الله ليلة الأربعاء بعد صلاة العشاء، في الخامس و العشرين من شهر ربيع الآخر، من سنة ثمانٍ و سبعين و أربع مائة للهجرة، و هو ابن تسع و خمسين سنة، و نقل في تلك الليلة إلى نيسابور، و في يوم الأربعاء حمل بين الصلاتين إلى ميدان الحسين في المدينة، و صلى عليه ابنه أبو القاسم بعد جهد جهيد، و حمل إمام الحرمين إلى داره من شدة الزحمة وقت التطفيل (و هو وقت قبيل غروب الشمس) و دفن في داره، ثم نقل بعد سنين إلى مقبرة الحسين بنيسابور، و دفن إلى جانب والده.

و أكثر الشعراء المراثي و قول الشعر، و مما قيل فيه[1]:

قلوب العالمين على المقالي و أيام الورى شبه الليالي

أيُثمر غصن أهل العلم يوماً و قد مات الإمام أبو المعالي

كتاب "مغيث الخلق في ترجيح القول الحق"

[1] انظر: طبقات الشافعية الكبرى **181/5** و ما بعدها، العقد الثمين **507/5**، وفيات الأعيان **343/2**، مفتاح السعادة **23/1**، طبقات الشافعية، الإسنوي **411/1**، روضات الجنات ص**463**، المنتظم **20/9**، طبقات الشافعية لابن هداية ص**62**، معجم المؤلفين **184/6**، شذرات الذهب **358/3**، العبر **291/3**، البداية والنهاية **12/ 128**، الكامل لابن الأثير **145/10**، مرآة الجنان **124/3**، **131**، تبيين كذب المفتري ص **285**

الكتاب الذي بين أيدينا "مغيث الخلق" ينتمي إلى كتب علم الخلاف. و علم الخلاف هو العلم الذي يتعلق بالأدلة و الأصول التي يأخذ منها الأئمة أحكامهم، و يبحث عن وجوه الاستنباط من الأدلة الإجمالية و التفصيلية، و يقيم الأدلة و البراهين و الحجج الشرعية لاجتهاد الأئمة الفقهاء.

و يعتمد علم الخلاف على علم الجدل و مبادئه، و يستمد أصوله من العلوم العربية و الشرعية، و خاصة أصول الفقه، و لذلك اعتبره بعض العلماء ملحقاً بأصول الفقه.

و يهدف علم الخلاف إلى تأييد مذهب الأئمة بإيراد الحجج و البراهين و الأدلة لأقوالهم، و بيان القواعد و الأصول التي اعتمدوا عليها في الاجتهاد و الاستنباط، و دفع الشكوك التي ترد على المذهب، و رد الشبه التي تثار عليه، و إيقاعها في المذهب المخالف.

و قد شغل علم الخلاف إمام الحرمين الجويني ردحاً طويلاً من الزمن، و كانت نفسه تتوق إليه لسعة ثقافته، و تخصصه في الفقه على المذهب الشافعي، و اطلاعه الواسع على المذاهب الفقهية الأخرى، و ممارسته للجدل و المناظرة، و تآليفه في علم أصول الدين و المقارنة فيه بين المذاهب و انتصاره هناك لمذهب أهل السنة و الجماعة، و هذه الصفات تؤهله للمشاركة الكاملة في علم الخلاف، فكتب عدة مصنفات فيه، و خاصة في المقارنة مع المذهب الحنفي الذي كان شائعاً و منتشراً في العراق و خراسان، و كان ينافس المذهب الشافعي.

إن موضوع الكتاب – علم الخلاف- قد زال و اندثر في عصرنا الحاضر، و منذ زمن بعيد، فلا يدرس علم الخلاف بين العلوم الشرعية، و لا يطلع عليه أحد، و قد قال طاش كبرى زادة: "و قد جمع بعض العلماء في علم الخلاف المسائل العشرين، و بعضهم الأربعين، و غير ذلك من الرسائل و التعليقات، لكن قد ضاع كتبه، و انطمست آثاره، و بطلت معالمه في زماننا هذا ...، و إلى الله المشتكى من زمان صار الكلام فيه كلاماً بلا أثر، و الخلاف خلاف بلا ثمر، و الأصول فضولاً، و المعقول مغفولاً".

و الكتاب" مغيث الخلق" و أمثاله من كتب بقية المذاهب عبارة في أصله و فرعه جزء من الدعوة المذهبية التي بدأت من القرن الثالث الهجري، و استمرت إلى يومنا هذا، و لا غبار عليها، لكن اقترنت في العصور المتأخرة بالتعصب المقيت، و العصبية الضيقة بين المذاهب التي يأنفها الأئمة أولاً، و العلماء العاملون، و الفقهاء المخلصون ثانياً، و قد زالت هذه العصبية المذهبية و الحمد لله، و تجلى التقدير و الاحترام بين المتدينين لأئمة المذاهب، و تقررت الدراسة المقارنة بين المذاهب، و انتشر الانتقاء و الاختيار للأحكام التشريعية العملية من مختلف المذاهب دون تقيد بمذهب، و شاع بين عامة الناس إمكان تقليد مذهب آخر في العبادة أو المعاملات.

و بالمقابل فقد ظهر إلى الوجود الفقه المقارن الذي يحل محل علم الخلاف، و انتشرت الدراسات المقارنة بين المذاهب تدريساً و بحثاً و تصنيفاً، و لم يبق لموضوع كتاب "مغيث الخلق" فائدة و أهمية إلا من ثلاث نواحٍ:

الأولى: الدراسة المقارنة فيه بين الآراء، مع عرض الأدلة و مناقشتها، و معرفة مآخذ الأئمة و مناط الاجتهاد و الاستنباط للوصول إلى ترجيح القول الأقوى و الأصح.

الثانية: الاستفادة من الأصول و القواعد التي ذكرها إمام الحرمين الجويني أثناء عرضه و احتجاجه و مناقشاته، و هي فوائد أصولية طيبة، و قواعد فقهية كلية مفيدة.

الثالثة: الاستفادة من أسرار الشريعة و حكمها التي بيّنها الجويني رحمه الله بأسلوب شيق، و عبارات رصينة، و ألفاظ رقيقة، تدل على عمق الإمام رحمه الله في إدراك أسرار التشريع، و حكمة كل فرع منه، كما تدل على فصاحة الأسلوب و تمكنه من اللغة العربية فهماً و عرضاً و استعمالاً.

تقييم كتاب مغيث الخلق

كان هذا الكتاب مثار جدل كبير لاتهام إمام الحرمين بالتعصب المذهبي، و أنه ينال من الإمام أبي حنيفة، و أن ذلك لا يليق بمقام إمام الحرمين و علمه و فضله و أدبه و مكانته، مما دفع بعض العلماء إلى إنكار نسبة الكتاب إليه، و أنه مدسوس على إمام الحرمين، كما حمل عدداً من علماء الحنفية على الرد على هذا الكتاب، منها كتاب "الكلمات الشريفة في تنزيه أبي حنيفة عن الترهات السخيفة" لنوح القونوي الحنفي، و كتاب "تشييع الفقهاء لتشنيع السفهاء" للشيخ علي القاري الحنفي، و جاء الشيخ محمد زاهد الكوثري في هذا العصر فجمع بين الكتابين بكتابٍ سماه "إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق"، و طبعه في مطبعة الأنوار بمصر، الطبعة الأولى سنة **1360**هـ، و حمل الشيخ الكوثري في مقدمته على الجويني و تلميذه الغزالي و الإمام الرازي، و اتهمهم بالتعصب للمذهب الشافعي، و نال من الجويني، ثم بدأ في الرد على كتابه فقرة فقرة بأسلوب حاد، مع التعصب لأبي حنيفة رحمه الله، و كان الكوثري يقول عن ذلك: "متعصب رمي بمتعصب".

و قد جمعنا بين الكتابين، فجعلنا كتاب مغيث الخلق للجويني في الأعلى، و كتاب إحقاق الحق للكوثري هامشاً له.

ترجمة الكوثري[1]

صاحب كتاب "إحقاق الحق"

هو محمد زاهد بن الحسن الحلمي (المتوفى في دوزجه يوم الأربعاء ثاني عشر ربيع الآخر سنة **1345** عن خمس و سبعين سنة، و كان انتقل إليها من قريته سنة **1303**) ابن علي الرضا بن نجم الدين خضوع بن باي بن قنيت بن قانص و ينحدر من أصل جركسي من فخذ يعرف جدهم باسم كوثر و من هنا كانت النسبة و يرجح أن يكون بين قانص و كوثر نحو سبعة آباء.

ولد يوم الثلاثاء **27** أو **28** من شوال سنة **1296** مع أذان الفجر في قرية الحاج حسن أفندي[2] و تلقى مبادئ العلوم من شيوخ دوزجه و غادرها سنة **1311** للأستانة و نزل عند وصوله في مدرسة دار الحديث التي بناها قاضي العسكر حسن أفندي المتوفى سنة **1044** حيث كان يتزل عمه موسى الكاظم[3] و طلب العلم في جامع الفاتح على الشيخ إبراهيم حقي الأبيني إلى أن توفي سنة **1318** فتمم على الشيخ علي زين العابدين الألصوني سنة **1336** إلى أن تخرج عليه سنة **1322**، و كان الامتحان للعالمية في ذلك الوقت يجري مرة كل خمس سنوات

---

[1] بتصرف عن: الأستاذ أحمد خيري، تقديمه لكتاب: مقالات الكوثري ولمزيد من الاطلاع على ترجمة الكوثري ينظر ترجمته التي كتبها الأستاذ عزت العطار، في أول كتاب "تأنيب الخطيب"، وترجمته التي كتبها الأستاذ أحمد السَّروي في أول طبعة كتاب "طبقات ابن سعد" طبعة القاهرة، وإلى ما كتبه العلامة البنوري والعلامة محمد أبوزهرة في أول كتاب مقالات الكوثري" وإلى ما كتبه تلميذه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

[2] هي قرية أنشأها والد المترجم فعرفت باسمه(حاج حسن قريسي) وتقع قبلي قضاء دوزجه بنحو ثلاثة أميال وشرق الآستانة بنحو خمس مراحل

[3] هو موسى الكاظم الكوثري السيروزي المتوفى سنة **1353** في أطه بازار بالأناضول بين الآستانة و دوزجه عن حوالي تسعين سنة.

و تصدر به إرادة سلطانية، و كان امتحان المترجم سنة **1325** بلجنة رئيسها وكيل الدرس أحمد عاصم المتوفى سنة **1329**- و أعضاؤها محمد أسعد الأخسخوي الذي ولي مشيخة الإسلام فيما بعد و مصطفى بن عظم الداغستاني المتوفى سنة **1336** و إسماعيل زهدي الطوسيوي المتوفى سنة **1327** و له مشايخ غير هؤلاء ذكر أغلبهم و ترجم لبعضهم في ثبته المسمى **(التحرير الوجيز)**.

و لما نال إجازته العلمية سنة **1325** اشتغل بالتدريس في جامع الفاتح إلى أوائل الحرب العظمى الماضية التي بدأت في سنة **1332** و لما كان ممن قاوموا التغيير الذي أراد أن يقوم به الاتحاديون القائمون بالحكومة العثمانية وقتئذٍ ذلك التغيير الذي أرادوا به القضاء على العلوم الدينية تحت ستار الإصلاح فقد أصبح عرضة لاضطهادهم.

و تفصيل الأمر أن النظام القديم كان يقضي بأن الطلبة يختارون شيخاً يحضرون عليه العلوم جميعه من مبدئها إلى غايتها لمدة خمس عشرة سنة فأراد أصحاب النظام الجديد إدخال العلوم الحديثة الغربية و تخصيص المدرسين بأن يدرس كل منهم ما يختار له من العلوم لعدة فصول و جعلوا مدة الدراسة ثماني سنين و عقدوا لذلك مجمعاً و كان الشيخ الكوثري من أعضائه فرأى في ذلك قضاء على الدين لقصر مدة الدراسة و كثرة العلوم خصوصاً و أن الطلبة أتراك و العلوم الدينية تستلزم دراسة اللغة العربية، فما زال يحتال و يمكر حتى جعل مدة الدراسة اثنتي عشرة سنة غير البدء بسنتين تحضيريتين، و بعد ذلك ثلاث سنوات للتخصص فأصبحت المدة سبع عشرة سنة و ذلك بمعاونة بعض الصلحاء من أعضاء اللجنة مما أثار حفيظة صنائع الاتحاديين من أعضاء اللجنة فسعوا في عزل شيخ الإسلام في ذلك العهد محمد أسعد بن النعمان الأخسخوي و تعيين خيري أفندي الأركوبي الذي كان على بغضه للقديم و صرامته ذا ورع و دين إلى حد ما فلم ينل الاتحاديون مشتهاهم و صدر قانون الإصلاح محققاً لرغبات المجمع و هادماً لشهوات المتطرفين فلما شمرت الحرب عن ساقها و كان الشيخ الكوثري اختير له علوم البلاغة و الوضع و العروض و التدريس في معاهد نظامية يومياً ما عدا الجمعة، أشار عليه بعض أصدقائه من

الاتحاديين بأن وجوده في الأستانة أثناء الحرب قد يجعله عرضة لبعض الاضطهاد. فقال: إنه يود القيام بافتتاح المعهد الفرعي الذي أنشأته الحكومة في قسطموني بوسط الأناضول فصدر الأمر بنقله حيث بقي هناك ثلاث سنوات استقال عقبها و عاد إلى الأستانة.

و مما حدث له قبل ذهابه إلى قسطموني أن الجامعة أرادت تعيين أحد أساتذتها لتدريس الفقه و تاريخه فتنافس في ذلك الأساتذة الاتحاديون فرأت الإدارة عقد امتحان و أخبره بالنبأ أحد زملائه فقدم طلب الدخول في الامتحان آخر يوم و أصبح فأدى الامتحان، و كان الأول في النجاح، و لكن الاتحاديين غاظهم هذا الأمر، فقام أحد كبار نوابهم و كان زميلاً للشيخ في التدريس بالفاتح و اسمه فاضل عارف المتوفى سنة **1341** و طلب من وكيل[1] المعارف المدعو محمد شكري بك أن يوقف تبليغ موافقته للجامعة ففعل، فلما علم الشيخ بذلك زاره و قال له– و الآخر يعجب من زيارة خصمه–: علمت من الصحف نبأ تعييني و لما كنت زميلي في التدريس و من ذوي الجاه الآن فلا بد أن ذلك كان بمساعدتك. و اضطر عارف إلى مجاراة الشيخ و قبول شكره و تناسى معاكسته السالفة.

و لما رأى الاتحاديون أنه لا مناص من تعيين خصمهم اكتفوا بانتداب أحد الأساتذة لهذه الوظيفة و لم يعينوا فيها أحداً حتى لا يتعرضوا للنقد بتعيين أحد أعوانهم و تخطي الناجح الأول.

و عاد الشيخ من قسطموني إلى الآستانة، و في طريقه غرق في أقتشه شهر و كان وصوله إلى الآستانة عقب الهدنة مباشرة فعين في دار الشفقة الإسلامية و هي مدرسة ليلية كبيرة تحت إشراف جمعية خاصة.

[1] أي الوزير وكانت تطلق عليه كلمة الوكيل وقتئذٍ باعتبار أن كل وزير نائب عن السلطان في وزارته فهو في حكم وكيله.

و ساعده نجاحه في الامتحان السابق الذكر على أن يلي تدريس التخصص مع صغر سنه بالنسبة إلى زملائه في تدريس التخصص و ذلك بعد نحو شهر من اشتغاله بدار الشفقة الإسلامية - و استمر في ذلك حتى انتخب عضواً في مجلس وكالة الدرس نائباً عن معهد التخصص و بعد ذلك عين وكيلاً للدرس و رئيساً للمجلس المذكور إلى أن عزل و استمر بعد عزله عضواً بمجلس وكالة الدرس لأنه لما عين رئيساً لم يعين بدله في العضوية فلما عزل عن الرياسة بقي في العضوية و التدريس إلى أن غادر الآستانة قاصداً مصر على الباخرة العباسية من بواخر شركة البوستة الخديوية فوصل الإسكندرية يوم الأحد **13** من ربيع الآخر سنة **1341** الموافق **3** ديسمبر سنة **1922**م و نزل بالقباري أياماً ثم سافر إلى القاهرة و نزل بفندق دار السلام بالحي الحسيني أياماً ثم انتقل إلى شبرا و سكن منزلاً بجوار قسم شبرا أشهراً ثم سكن بمصر الجديدة لمدة أشهر أيضاً ثم عاد إلى الإسكندرية و منها رحل رحلته الأولى إلى الشام قبل انقضاء عام على يوم وصوله من الآستانة فسافر بالبحر من الإسكندرية إلى بيروت و منها بسكة الحديد إلى دمشق حيث مكث بها ما يزيد على سنة ثم عاد بالسكة الحديدية إلى مصر عن طريق فلسطين و القنطرة فنزل بحلوان ثم تحول إلى مدرسة محمد بك أبي الذهب المتوفى سنة **1189** و هي المعروفة بين العامة باسم تكية الأتراك. و تقع شمال جامع أبي الذهب الكائن في شمال الجامع الأزهر و المطل على ميدان الأزهر ثم رحل الرحلة الثانية إلى الشام سنة **1347** عن طريق فلسطين بسكة الحديد و أقام بدمشق حوالي سنة و عاد بنفس الطريق إلى مصر سنة **1348** فنزل بفندق الكلوب المصري بالحي الحسيني فلما التحق بدار المحفوظات المصرية لتعريب الوثائق التركية بعد اختياره نقل سكنه إلى القلعة ليكون قريباً من عمله و هناك حضرت عائلته حيث رآها لأول مرة منذ مغادرته الآستانة، ثم انتقل بعائلته إلى شبرا فحلوان فشارع حسن الأكبر فشارع النزهة السكاكيني فشارع سوق العباسية بالمنزل رقم **17** فآخر شارع العباسية بالمنزل رقم **130** ثم انتقل إلى رقم **60** من شارع العباسية في سنة **1357** و في أوائل سنة **1358** انتقل إلى المنزل رقم **63** من شارع العباسية حيث بقي عشر سنوات، و في أواسط سنة **1368** انتقل إلى المنزل رقم **3** حارة الروم المتفرع من شارع الملك و انتقل منه بعد